عين لبعضي والسؤال

الدكتور سامي محمود إبراهيم
رئيس قسم الفلسفة - كلية الآداب/ جامعة الموصل - العراق

نبدأ حياتنا محاطين بمن يهتمون بنا.. نفتح أعيننا لنجد وجهين مبتسمين لنا باهتمام.. يشاهدنا المحيطون بنا، ليسرعوا ويمسحوا على رؤوسنا بحنان.. وينطلق التصفيق لنا بحرارة عندما يلحظوا أولى خطواتنا نحو الحياة، أو نسقط لنحاول الوقوف من جديد.. كما نستقبل باقات الشكر عندما نتمكن أول مرة من كتابة اسمنا.. هذا حالنا في سنوات طفولتنا البريئة.. لذلك يبقى حلمنا متشبثاً في الميل للعب بمرح الطفولة.. في العودة، ولو في الخيال.

يبذل المحيطون بنا جهداً كبيراً في توفير مستلزمات عيشنا، ويضعوننا في السرير، ويحكون لنا القصص قبل النوم (جدتي: بنات نعش، والسماء). وكان كل شيء أسطورة تصاغ على مقاس عقولنا الوردية والأحلام..

بعد ذلك نصبح بالغين لنصطدم بالحقيقة المروعة بأننا نعيش في عالم يغرق في اللامبالاة وعدم الاهتمام بكل ما نفكر أو نفعل.. قد نكون في مرحلة المتوسطة، أو الإعدادية، عندما تصدمنا هذه الحقيقة. أو ربما نكون في الجامعة، أو نجلس في البيت، عندما يخطر ببالنا كم نحن لا شيء في الصورة الكلية للبشرية وللوجود. لا أحد نمر به في الشارع يعرف أي شيء عنا، بل لا يهتم بنا. يتجنبوننا على الأرصفة، ويتعاملون معنا كمجرد حواجز تقف

على حدود حريتهم.. لا أحد سيمسح على رؤوسنا، أو يبتسم في وجوهنا.. عدنا صغاراً، لكن هذه المرة أمام أنفسنا، أمام الأبراج العاجية التي بنتها الحضارة.. قد نموت ولن يلاحظ أحد أننا ولدنا حتى، أو أننا كنا نعيش.

تظهر اللوحة التي رسمها (بروغل) مشهد اللحظات الأخيرة في حياة (إيكاروس). والعبرة فيها هي أن مصير (إيكاروس) الذي يغرق، ليس محوراً رئيسياً في اللوحة، رغم أنه عنوانها. عليك أن تدقق كثيراً في اللوحة حتى تلحظ يد (إيكاروس) وهو ينازع الغرق، إلا أن اللوحة تسلط الضوء على الفلاح الذي يحرث الحقل، وعلى راعي الغنم. في الخلفية نرى مدينة، وسفناً، وميناء. يبدو أنه لا أحد يلحظ حال (إيكاروس)، الأخبار جيدة وسيئة في نفس الوقت: من ناحية، قد لا يلحظ أحد أننا نوجد، ومن ناحية أخرى، فهم لن يلاحظوا أيضاً عندما نسكب الشاي، أو عندما ننسى أننا كبرنا ونتصرف كالصغار.

هنا نرى الجانب الإيجابي من حقيقتنا التراجيدية.. علينا أن نقبل التحرر الضمني في حقيقة أننا مهملون وسط هذا الزخم الهائل من المشاعر والعواطف والانفعالات.. منسيون وسط أشياء العالم، ومشاغل الحياة.. ومن ثم، نقبل بشجاعة أكبر على هذه المواقف حيث تكون بعض الأخطاء والسخافة أمراً طبيعياً. قد نفشل، ولكننا نقبل بثقة أن الفشل مقدمة للنجاح، وهو الشيء الذي لن يلاحظه أو يهتم به أحد أيضاً❐